التحليل النفسي
والإبستمولوجيا الفرويدية

- التحليل النفسي والمجتمع
- الواقع النفسي والواقع التاريخي
- القياس النفسي: إحصاء الطباع السيكولوجية
- كتاب اسود ضد التحليل النفسي
- دفاع عن التحليل النفسي: ما الجديد منذ ك. بوبر؟
- الإبستمولوجيا الفرويدية
- قائمة بيبليوجرافية

obeikandl.com

obeikandl.com

تحيل عبارة التحليل النفسي بوضوح إلى التحليل الكيميائي، حسب رغبة **س. فرويد** (S. Freud 1856-1939) الذي أراد أن يشير إلى التشابه الموجود بين العالم الكيميائي الذي بفكك عنصرا مكتملا، لكي يتوصل إلى مادة أساسية والمحلل النفسي. لقد اقترح **فرويد** نفسه هذه العبارة، للإشارة إلى هذا العلم الجديد الذي يعرفه، كما يلي: 1- "هو طريقة بحث العمليات النفسية التي تظل - بخلاف ذلك - مستعصية على المعرفة (لا واعية)". 2- ينبني "منهج معالجة الاضطرابات العصابية، على هذا البحث". 3- هو "سلسلة من المفهومات السيكولوجية المكتسبة التي تتحد تدريجيا في تخصص علمي جديد". يدفع انتشار النظريات والتطبيقات المجتمعة، بالمحلل النفساني الذي يعاين الشخص المصاب إلى أن يحدد بوضوح انتماءه إلى هذا التيار أو ذاك. وتتعقد المسألة أكثر، عندما يتضافر اسم التحليل النفسي عند العودة إلى **فرويد**. وهو ما يعني على العموم، أن كل من يستخدم هذه العبارة، ينتسب إلى **ج. لاكان** (J. Lacan 1901-1981) الذي تبتعد نظريته وبعض تطبيقاتها بشكل محسوس، عن **فرويد** تحديدا. وبالنسبة لهؤلاء، فإن مدة الفترات العلاجية وأهمية اللغة - الدالة، تصبح جوهرية وتكون مكانة توظيف النقل والنقل - المضاد، ذات طابع متميز...

تثير هذه العبارة لغطا شديدا، سواء بين الجمهور العريض كما عند المختصين، لأنها تنسحب على دلالات عديدة. إذ كثيرا ما يخلط الجمهور بين شكل من العلاجات النفسية (psychothérapies) والتحليل النفسي. ويدور الحديث لدى بعض المختصين الذين لا يتم التمييز بينهم من حيث المصطلح، عن التحليل النفسي الفرويدي ومختلف أشكال العلاجات النفسية الأخرى التي ليس لها علاقة بالتحليل النفسي سوى الاسم... هكذا، عمل **كارل ج. يونج** (Carl Gustav Jung 1875-1961) وأتباعه على تمييز ممارستهم، بوصفها علم النفس التحليلي (psychologie analytique) لإبراز اختلافهم عن التحليل النفسي الفرويدي، وكذلك كان الأمر مع الأتباع والمعارضين الآخرين من أمثال **أ. آدلر** (Alfred Adler 1870-1937) **وث.**

ريك (Theodor Reik 1888-1969). ومن بين علماء التحليل النفسي هناك، من هم أعضاء في "الجمعية العالمية للتحليل النفسي" (Association psychanalytique internationale) وهناك من هم فرويدون، كلاينيون أي أنصار **ملاني كلاين** (Mélanie Klein 1882-1960) والبيونيون أتباع **و. بيون** (Wilfred Bion 1897-1979) وأتباع **آنا فرويد** (Anna Freud 1895-1982) و**هـ. كوهوت** (Heinz Kohut 1913-1938) أيضا، الخ. ويمكن أن تتنوع ممارسات هؤلاء ونظرياتهم كثيرا. لكن على العموم، بالنسبة للأشخاص الراشدين، فإن الحمية التحليلية النفسية، تجرى على الأريكة بوتيرة من ثلاث إلى أربع فترات أسبوعيا وربما أكثر...

التحليل النفسي والمجتمع

تميز بناء النموذج النظري الفرويدي بإجراء أعمال أساسية بين سنوات 1896، 1905، 1914، 1920 وآخرها في سنة 1930. العمل الأول، هو مؤلف نظري حمل عنوان "مقدمة سيكولوجيا علمية" (L'esquisse d'une psychologie scientifique) ثم تلاه كتاب علاجي آخر ألفه **فرويد** و**ج. بروير** (J. Breuer 1842-1925) تحت عنوان "بحوث حول الهستيريا" (Les études sur l'hystérie) والكتاب الشهير "تأويل الأحلام" (L'interprétation des rêves) الذي وضع قواعد الميتاسيكولوجيا. يمكننا أن نكتشف المجهود العلمي المتدرج، في وضع التحليل النفسي من قبل **فرويد** في الرسائل التي كتبها يوميا إلى صديقه **و. فليس** (Wilhelm Fliess 1887-1904) في العاصمة برلين... نشير إلى أهمية المكانة – بصورة أو بأخرى – التي تحتلها الأزمة النفسية في إعداد هذا النموذج. وفي سنة 1914، كتب **فرويد** نص "مدخل للنرجسية" (Introduction au narcissisme) الذي يتضمن الحجة النموذجية الثانية التي نظر لها هذا الأخير، عام 1920. والنص الأخير، هو محاولة في التاريخ الديني، لكنه يعتبر تكملة لكتابه عن نظرية "عقدة **أوديب**" (complexe d'Oedipe). يشتمل التحليل النفسي على ثلاثة محاور تفكير وبحوث رئيسية: 1- مدونة نظريات مستخلصة من التجربة التحليلية التي تسهم في مفهمة الجهاز النفسي. وهو مجموعة تشكل مبحثا في الميتاسيكولوجيا [التي تنظم مبادئها الثلاثة النشاط النفسي: المنظور النموذجي، الديناميكي والاقتصادي]. 2- منهج بحث العمليات النفسية في مجملها والمعاني

اللاواعية للكلمة، السلوك أو منتجات التخيل... 3- الحمية التحليلية النفسية، بواسطة المنهج والاشتراك العفوي. ينشأ طلب الحمية في الغالب، عن ألم نفسي يعترف به ويعاني منه المريض، كما يمكن أن يعمل وينبني في مقابلات تحليلية نفسية "تمهيدية". يؤكد **فرويد**، أنه إذا كان التحليل النفسي "منهج علاج للاضطرابات العصابية"، فإن غايته القصوى ليست شفاء المريض بإزالة علامات المرض، لكن التوصل إلى "استعادة قدرات الفعل ومتعة الوجود" لديه.

ركز **س. فرويد** في مؤلفه "فائدة التحليل النفسي" (L'Intérêt de la psychanalyse) ليس وحسب على أصالة مقاربة التحليل النفسي واستكشاف السيرورات اللاشعورية في نفسية الأفراد، بغية شفاء الأشخاص العصابيين، لكنه ركز على المساهمات التي يقدمها هذا المنظور العلمي لخدمة مجموع العلوم السيكولوجية والاجتماعية التي تشكلت من قبل، حيث يلعب اللاوعي دورا غالبا بالأساس في كلية السلوكيات الإنسانية. وفي نصوصه اللاحقة، مثل "طوطم وطابوه" (Totem et Tabou) ومؤلفه الأخير "موسى والتوحيد" (Moise et le monothéisme) فقد دقق في العناصر التي تترأس نشأة وتحوّل الرابطة الاجتماعية. هكذا، يمكننا أن نقول إلى أية درجة كان **فرويد** واثقا من أن التحليل النفسي، سيخفق في الأساسي، إذا لم يجابه مشكلات بناء الحضارة الإنسانية والسير الاجتماعية.

لقد شد مثل هذا الانشغال منذ البداية، تفكير **فرويد**. وقبل أن يصبح طبيبا ويتوجه بعد ذلك نحو طب الأمراض العقلية، فقد أبدى ميلا اتجاه التنظير الفلسفي واهتماما واضحا بالظواهر الاجتماعية والسياسية، الأمر الذي دفعه إلى ترجمة كتاب **ج. س. ميل** (1806-1873) "استرقاق النساء" (L'Asservissement des femmes) الذي يمكن اعتباره، كأول كتاب "نسوي". على كل حال، في مدينة فيينا في نهاية القرن العشرين، وهي المدينة الصاخبة حيث يتواجه الليبراليون، المحافظون والاشتراكيون، أصحاب الإمبراطورية والمناضلون من مختلف الجنسيات، فقد نمت النزعة اللاسامية منذ أن اكتسب اليهود الحقوق المدنية وأصبحوا يتدخلون بشكل فاعل، في الحياة الثقافية والصناعية للبلاد وعرفت الآداب، الفنون والموسيقى مستويات تقدم مجدد. وكان من الصعب عليه إذن، ألا يتأثر بالاضطراب الاجتماعي الذي يعيش فيه: "هكذا سيظل الإنسان ابن زمنه، حتى وإن تعلق الأمر بما يعتبر شخصيا في العمق".

ليست هذه المعطيات البيوجرافية، غير مفيدة من أجل فهم الأسباب والطابع الضروري من وجود عواقب التحليل النفسي على العلوم الاجتماعية، بحكم أن المقاربة التحليلية هي في جوهرها، مقاربة لا يمكن للباحث فيها أن ينفصل عن إنسان الفعل (العالم عن المعالج)، حيث ينخرط الباحث شخصيا في مشروعه. ويكون النجاح العلاجي، بحسب التيار الوجداني والليبيدي الذي يربط بين المحلل ومريضه (التحويل والتحويل – المضاد). إذا كان **لفرويد** من اهتمامات أخرى، لو أنه نشأ في وسط آخر، فإنه لم يكن ليشكل موضوع علمه بالكيفية نفسها. والمثال المعاكس هو **كارل يونج** (Carl Jung) ذلك البروتستانتي السويسري، المتدين في العمق، إن لم نقل المتصوف [الذي رغم انخراطه لمدة معينة في المذهب الفرويدي] وجب عليه أن يبتعد عنه، لكي يكوّن علم النفس التحليلي الخاص به الذي جاء موضوعه مخالفا لموضوع **فرويد**. وإذا تذكرنا بأن التحليل النفسي، على خلاف كافة العلوم الأخرى ورغم المضايقات التي تعرض لها من قبل كل من **ث. هـ. مينيرت، إ. و. بروكي، ج – م. شاركو، ب. جانيت، ج. بروير** (Theodor Hermann Meynert 1833-1892, Ernst Wilhelm Brucké 1819-1892, Jean-Martin Charcot 1825-1893, Pierre Janet 1859-1947, Joseph Breuer) هو في البداية، إنجاز من عمل شخص واحد. إن "التحليل النفسي هو من ابتكاري" ("La psychanalyse est ma création") كما كتب **فرويد**. وأن استحالة فصل مشروع التحليل النفسي، عن شخصية **فرويد** ذاتها، يصبح أمرا مؤكدا.

رغم ذلك، لا يكفي أن نقوم بتحري منهجي عن حوافز، مكبوتات، مقاومات وأهواء **فرويد** من أجل أن نحل المشكلات الإبستمولوجية التي يتم طرحها، نتيجة لتطبيق علم الفردي على علوم الجمعي [علم الاجتماع، البيداغوجيا، الجمال والأسطورة...]، علم الواقع النفسي [الذي تحركه الرغبة والاستيهام] على علوم الواقع التاريخي [التي تتمثل مركباتها الأساسية في الجماعات التي لها مشروعات واعية وبناءة للمؤسسات المرئية والبناءات المادية]. فإذا كانت المسألة، تطرح على هذا النحو- كما يعتقد المحللون والسوسيولوجيون ذلك، حتى الآن – يكون من اللاممكن أن نقدم إجابة شافية. في الواقع، ليس التحليل النفسي فقط علما للفرد، بل أنه يهم مباشرة الواقع الاجتماعي: الواقع التاريخي هو أيضا مشبع بالواقع النفسي، مثلما يرتوي هذا الأخير من الأول. وفي الأخير، فإن غرائز الحب والموت، حاضرة

أيضا في حياة المجموعات الاجتماعية، مثلما هي متجلية في حياة الأشخاص.

في مستهل كتابه "سيكولوجية الحشود وتحليل الأنا" (Psychologie des foules et analyse du moi) أعلن **فرويد** أن: "التعارض بين السكولوجيا الفردية والسيكولوجيا الاجتماعية أو سيكولوجيا الحشود، يفتقد كثيرا من حدته، عندما نتفحصه في العمق. وحقيقة، فإن السيكولوجيا الفردية، تستهدف دراسة الإنسان بمفرده. وهي تبحث عن معرفة، بأي سبيل يحاول هذا الأخير، أن يحقق إشباع دوافعه الغرائزية. لكن مع ذلك، فإن هذا الإشباع لن يتحقق له سوى نادرا [...] بسبب تغييب علاقات هذا الفرد مع الأفراد الآخرين. إذ يتدخل هذا الآخر في الحياة النفسية للفرد، بشكل منعزل وبانتظام كنموذج، موضوع، دعامة ومنافس. ومن هنا، فإن السيكولوجيا الفردية [هي أيضا، في مجموعها وبالموازاة مع ذلك] هي بمثابة سيكولوجيا اجتماعية، بمعنى أنها موسعة، لكنها مبررة تماما".

وهكذا، يصبح من الجلي أن الفرد لا يوجد خارج نطاق الحقل الاجتماعي. ذلك أن الكائن البشري، ممزق على الدوام بين التعبير عن رغبته الخاصة (اعتراف برغبته) وضرورة التعرف إلى الآخر (رغبة الاعتراف). فليس سوى الآخر، هو الذي يمكن أن يعترف به ككائن يحمل مجموعة من الرغبات ويمكن أن يضمن له مكانته في ميدان الرمزية الاجتماعية. وهذا، بحكم أن الفرد يولد مسبقا وهو عاجز عن العيش بذاته ولا يمكنه في سيرورة التنشئة الاجتماعية، سوى أن يستدخل الممنوعات والقيمة المعلنة – من قبل أول المربين – التي تتجسد قبل إدراكها عبر اللغة، من خلال عمليات: العناية، التغذية، المداعبات، المحاكاة وأحيانا الصراخ والضرب التي تطبع تدريجيا على جسد الطفل وفي نفسيته أثر الوالدين. وتجعل حالة "الضيق" التي يولد ويعيش فيها الطفل من الأم "موضوع الحب الأول"، وبعد ذلك، من الأب –"هذا المخلوق الضخم"– المتراس الصلب جدا، ضد قوى الطبيعة وقطب الهوية الأساسي، لأنه هو الذي يحمل معايير الحضارة. يسمح الانتقال إلى عقدة **أوديب**، عن طريق معبر الختان الرمزي للطفل، بأن يتحول هذا الأخير إلى كائن اجتماعي، يكون قد تمثل قيم جماعته وكائن بشري يعرف (في أغلب الأحوال: بشكل لاواعي) ما هي الرغبات التي يمكنه أن يعبر عنها ويشبعها وتلك التي يكون مآلها الكبت، لكي يتم توجيهها في العمل الإنتاجي أو في الإعلاء الصعب في ميادين وحقول: الفنون،

العلوم أو نشاطات قيادة الآخرين (حكم، تربية، الخ).

ورغم ذلك، في بعض الحالات، نلاحظ كيف أن العنف الضروري للارتقاء إلى مصاف الإنسانية الذي يخضع له الطفل، يتزاوج مع عنف مفرط من قبل الوالدين، اللذين يصبحان أعوان القمع الذي يعتبر نظام رقابة شاملة ومجابهة. لا يمكن لهذا القمع أن يؤدي إلى أي بناء اجتماعي ولا يمكنه سوى أن يثير ردود أفعال لا اجتماعية [رغبة الثورة والتحطيم أو ظهور المرض العقلي]. يمكن للقارئ أن يتحقق الآن [إلى أية درجة] من أن التحليل النفسي ليس وحسب علم نفس فردي، لكنه مجموعة من التفاعلات التي تجري بين مختلف الآخرين وسيرورات الهوية، إسقاط وتكوين الاستهامات التي تنشط خلال تلك العلاقات البينية التي تتخلل الواقع النفسي، عند مختلف المتصارعين والمتنافسين. لكن ما هو هدف السوسيولوجيا والاقتصاد السياسي، إن لم يكن هو محاولة الإمساك بكيفية تفاعل الأفراد، فيما بينهم وعيشهم في مجموعات؟ ولهذا، فهم يؤسسون المجتمعات، يعدون الأساطير ويتبنون سلوكيات اقتصادية؟ من جهة أخرى [باستثناء السيرورات النرجسية التي كشف عنها التحليل النفسي ولا يمكن اختزالها في الآليات الاجتماعية] تشترك العلوم الاجتماعية والتحليل النفسي، في الموضوع نفسه: إنشاء، تطوير وتمتين الرابطة الاجتماعية. إذا كانت العلوم الاجتماعية تهتم أكثر بالنتائج الموضوعية للتفاعلات وإذا كان التحليل النفسي يركز أكثر على السيرورات اللاشعورية التي تنشط خلال تلك النشأة وتشكلها، فهذا لا يحول دون تمكين العلوم الاجتماعية [إذا أرادت أن تفسر "سلوك الجماعة برمته"، وفق مفهوم م. **موص** (M. Mauss 1872-1950)] أن تتغاضى عن الكيفية ذاتها التي يشعر بها الأفراد، يرهبون ويؤثرون (في خيالهم الفردي، كما في الخيال الاجتماعي الذي يعملون على خلقه) في ظواهر الهوية التي تصيب ليس فقط الطفل، لكن الراشد (تمثل الأب، يستمر من خلال تمثل الأستاذ، الرئيس، الجد أو الإله) عبر سيرورات: القمع، الكبت، التوجيه وإعلاء الدوافع التي تسود في مجتمع معين.

الواقع النفسي والواقع التاريخي

من الناحية القبلية، يعتبر عالم الاستهامات عالما مختلفا عن عالم الواقع بالأساس. لقد كتب **فرويد** بهذا الصدد: "لا يجب أن ننجر أبدا إلى إدخال جسارة

الواقع في التشكيلات النفسية المكبوتة: لدينا التزام بضرورة استخدام النقود التي يجري التعامل بها في البلد الذي نستكشفه – وفي حالتنا هذه، فهي العملة العصابية". رغم ذلك، لم يتمكن **فرويد** نفسه من أن يستمر بشكل ثابت، في مثل هذا المعارضة. بل حرص بالعكس دائما على أن يعثر خلف الاستهام على صخرة الواقعة.

ولهذا السبب، فقد قدم في مؤلفه "الطوطم والطابوه" (Totem et tabou) الفرضية التي وفقا لها، كانت [منذ بداية العصور السحيقة] هناك "طائفة بدائية"، تخضع لذكرها الكبير الذي يخص نفسه بالملكية الجنسية على النساء. ويكون الأبناء الذين تمت إزاحتهم من قبله، قد اجتمعوا في يوم ما ويكونون قد قتلوا الأب وافترسوه. وبعد ذلك، فقد قاموا نتيجة أثر تأنيب الضمير، بتأليه هذا الكائن وحولوه إلى طوطم (جد، إله) يسهر ويحافظ على القوانين التي بدؤوا يفرضونها، بعدما قتلوا الأب حتى لا يقيموا عداوة بين الإخوة. هكذا، "في البداية كان الفعل" (**جوته** (*) كما ذكره **فرويد**). وكان لزاما أن القائد [كتب **فرويد** أن هذا الفعل، قد وقع تكراره، عددا من المرات في التاريخ] قد تم قتله في الحقيقة [لقد بدأت الإنسانية "بجريمة ارتكبت بشكل جماعي"] ويمكن أن ينشأ جراء ذلك، الشعور بالذنب وأن تتولد "التنظيمات الاجتماعية"، القيود الأخلاقية والديانات. إن أسطورة **أوديب** إذن، لا تجري فقط، على مستوى الاستهام والفرد، لكنها تجري كذلك على المستوى الواقعي والاجتماعي. وبهذا، فهي تشكل العقدة البانية للحياة الاجتماعية أو الحياة الفردية، على حد سواء. ومن هنا يأخذ الاستهام الفردي جذوره، في واقع الحياة الجماعية.

وبكل تأكيد، ليس من الضروري أن يكون الفعل قد وقع حتى ينمو الاستهام. لأن الاستهام خلاّق، يتغذى من انطباعات وإسقاطات لامتوقعة وهو تعبير عن الرغبة والدافع. لكن، ذلك لا يحول دون أن توفر العناصر الواقعية، نقطة الانطلاق ونقطة الارتكاز لخلقه وبروزه.

ومن جانبه، فإن الواقع التاريخي (الحياة الاجتماعية) تتخلله أساطير، رموز وتغص به دوافع الأفراد والجماعات. إذ من المستحيل على سبيل المثال، أن نفهم خصوصية الظاهرة النازية [يمكن أن نشبهها بالفاشية، النظام الاستبدادي لقائد وحزب

(*) شاعر، أديب، منظر فن ورجل سياسي ألماني، كان شغوفا جدا بعلم البصريات، الجيولوجيا وعلم النبات (Johann Wolfgang von Goethe 1749–1832)

وحيد] إذا أهملنا أو لم نأخذ في الحسبان البغض الشخصي الذي يحمله أ. **هتلر** (1889–1945) اتجاه اليهود، ورغبة القادة النازيين في تأسيس جرمانيا العتيقة [التي لم توجد قط سوى في الأسطورة] وإعادة خلق سلالة نقية (السلالة الآرية) يعتقد أنه تم "تدنيسها" من قبل اليهود، والإرادة الذهانية عند الألمان للسيطرة على العالم وجعل الألمان سلالة منتخبة جديدة، و"سلالة الأسياد"، يتجددون رمزيا من طرف الفهرر وتغذية العدوانية ضد الشعوب الأخرى التي تعتبر عبيدا بالمعنى الكامل للعبارة. من المستحيل أيضا [لكي نأخذ مثالا متناقضا] أن نفهم كيفية خلق وعمل دولة فلسطين، إذا نسينا أن كل الفلسطينيين في العالم كانوا منذ النكبة، يغذون الحفاظ على هويتهم ويتمنون أن يتواجدوا "السنة المقبلة في القدس". لا يجب أن تجعلنا هذه الأمثلة، نعتقد أن الاستهامات لا تعتبر بمثابة محركات، سوى في ظروف استثنائية. كل خلق اجتماعي يكون في البداية، عبارة عن "مؤسسة خيالية"، سواء تعلق الأمر بالرأسمالية، الاشتراكية أو في مستوى أدنى عمل منظمة، إذ توجد دوما نواة خيالية (استهامات جماعية، رموز، أساطير) تنشأ انطلاقا منها السلوكيات الرأسمالية، الاشتراكية أو المنظماتية وتصعد السلوكيات المحددة للحب والكراهية التي تنسجم مع مثل هذا السياق.

أبرز **فرويد** في مؤلفه "ما وراء مبدأ اللذة" (Au-delà du principe de plaisir) أن العالم [سواء كان نوعيا، فرديا أو اجتماعيا] تتحكم به غريزتان اثنتان متنازعتان، تتجليان معظم الوقت، بكيفية متشابكة هما: غريزة الحياة [غريزة الحب عند الشعراء والغريزة الجنسية في تجلياتها المتعددة] وغريزة أو الأصح غرائز الموت. تترجم غريزة الحياة في الحب المباشر، كما في الحب المكبوت، فيما يخص الهدف [صداقة، عطف، صحبة، تضامن] الذي هو منبع الرابطة الاجتماعية. ويسمح ذلك، ببناء "الوحدات الكبيرة أكثر اليوم" (الأسرة، الجماعة، القبيلة، الأمة) "وكذلك الشأن، بالنسبة للفرد وتطور البشرية كاملة أيضا، فإن الحب وحده هو الذي يعمل كمتغير في الحضارة، بمعنى أنه ينقلنا من حالة الأنانية إلى مرحلة الإيثار. وعليه، يهدف الحب الجنسي للمرأة، مع كل الإكراهات التي تترتب عنه إلى الحفاظ على ما هو ممتع للمرأة، كما الحب اللاجنسي للرجل الآخر، الحب اللواطي المعلى الذي ارتبط بالعمل المشترك"، في نظر (**فرويد**).

بينما تميل غريزة الموت [واجب التكرار، غريزة التحطيم والتحطيم الذاتي] بالعكس إلى استعادة الحي إلى اللاعضوي، فهي في خدمة الميل نحو القصور الحراري [إلى الفوضى والمتجانس] الموجود في الكائن البشري، كما في الحضارات. هذه الأخيرة ليست وحسب فانية، لكنها غالبا ما تكون ضحية الفناء [يكفي أن نفكر في حضارتنا نحن التي "دفعت بها السيطرة على قوى الطبيعة أبعد ما يمكن، حيث صار من اليسير عليها أن تتوصل إلى الإبادة الكاملة]. تعمل تلك الغرائز جيدا، مثلما كان الإنسان في البداية، "ذئبا لأخيه الإنسان"، يرغب في السيطرة على الآخرين واستغلالهم. وليس سوى بفضل قوة الحب، حيث يمكن للناس أن يتملصوا من علاقات القوة، من أجل بناء علاقات ثقة يحميها القانون.

إن اللعبة التي تدور بين غريزة الحياة وغرائز الموت، هي لعبة مركبة. ولتجسيد الحضارة، ستكون الكائنات البشرية في حاجة ماسة إلى قطب مؤسس ومقدس (قائد يجسد أيديولوجيا مشتركة) يحبهم (نبي، قائد عسكري، ملك) ويحبونه ويمكنهم أن ينصاعوا له بشكل سلمي. وبذلك يتماهى البعض في الآخرين ويتعرفون إليهم. وبهذا، فهم يدعمون الشعور بالإثم (الأنا الأعلى الجمعي) إلى درجة سيتم فيها قمع غريزة الحياة، وستصبح الحضارات في الوقت ذاته، متجانسة وأكثر عدوانية. وبالعكس، فإن غرائز التحطيم التي تلغم سير الحضارات، قادرة على أن تتحداها وترغمها على ابتداع أجوبة جديدة عن مواقف لا متوقعة. ويمكن أن تؤدي بها إلى الكشف عن الحياة، أين يبدو أنه لا وجود سوى للتكرار، الهامشية والمعارضة وحيث لا تعمل سوى كليانية الفكر والفعل. يسمح لنا **فرويد**، عبر أفكار غرائز الحياة والموت، بأن نمسك بشكل أفضل بالأسباب التي من أجلها يستند الرجال [الذين يريدون أن يبقوا أحرارا ويرغبون في أن يكونوا سعداء] في الغالب إلى الطغاة، القادة أو الدول إلى درجة أن الديمقراطية، تظهر كفكرة دوما جديدة وواقعا يعاد خلقه أيضا.

إن أثر **فرويد** أبعد من أن يبين تشابكه من خلال هذه الأوراق، فهو يشجع إذن على رؤية أخرى للواقع الاجتماعي الذي يتجلى كعالم نفسي، حيث تلعب الرغبات، التقمصات، إسقاطات الأفراد، الجماعات، الأمم والطبقات. وتقتصر العلوم الاجتماعية، دون مساندة التحليل النفسي على المشهد المرئي الذي يطفو على السطح. في حين أن ما هو لا مرئي، مقنع، لا مقول أو المكبوت، يمتلك في

الغالب [إن لم نقل مثله] أهمية أكبر مما يتجلى. بالتأكيد، لم يقل **فرويد** كل شيء، فقد ساهم بعض أتباعه، أمثال **ج. رحيم وج. دوفرو** (Geza Roheim 1891-1953 et Georges Devereux 1908-1985) بتقديم عناصر أساسية، في دراسة المجتمعات البدائية كما المجتمعات المعاصرة. في الحقيقة، لا يتعلق الأمر أيضا باختزال كافة جوانب الحياة الاجتماعية، في الحياة اللاشعورية للجماعات. لكن عدم التعرض لها، يعني أننا نقبل عدم الاكتراث بالحوافز العميقة جدا التي تحكم الحياة في المجتمع وبما لا يستطيع العقل أبدا أن يتمكن منه: أي بالرغبة والكراهية للآخر، رغبة الخلق والتحطيم في تقدير الباحث **أ. أنريكيز** (Eugène Enriquez).

القياس النفسي: إحصاء الطباع السيكولوجية

يعود الفضل في ابتداع علم النفس القياسي من دون أدنى شك إلى **ش. سبيرمان** (Ch. Spearman 1863-1945) في بداية القرن الماضي. فقد استعاد هذا الأخير، الإحصاء البيومتري عند **ف. جالتون** (F. Galton 1822-1911) الذي خصصه لعملية توزيع الخصائص التشريحية للسكان. وكان ينوي تطبيقه على القدرات العقلية، بالاعتماد على استمارة **أ. بنيت** (A. Binet 1857-1911). وقد استخدم اختباره هذا في الأول، لكي يقيّم ظاهرة التخلف العقلي، عن طريق مقارنة نتائج الأجوبة على مستوى الأداء القياسي الذي يتحقق في سن متساوي، عند مجموعة سكانية مرجعية. ويشير هذا النوع من الأدوات اليوم إلى قياس المهارة الفردية: وهو معامل الذكاء. وما فتئ تطور هذه الأداة في الميادين التطبيقية، ينمو منذ ذلك الوقت، رويدا رويدا إلى أن فرضت كتخصص جديد في علم النفس [سيكولوجيا الاختبارات] الذي يعتبر فيها القياس النفسي بمثابة اللغة والمنهج معا.

يبني هذا المشروع الذي افتتحه **سبيرمان** منطقه، في الدليل على تحليل الترابطات. فإذا كانت النتائج التي تم التوصل إليها، عن كل سؤال من الاختبار، تختلف بكيفية متلازمة مع العلامة المكتسبة على امتداد الاستمارة، عندئذ فإن هناك عامل متضمن – الذكاء – سيقوم بتنظيم مجموعة الأجوبة. لقد ابتدع **سبيرمان** بهذه المناسبة، نموذجا جديدا للبرهان، يسمى تقنية التحليل العاملي. هكذا، فإن مساهمة السيكولوجيا في تاريخ الإحصاء، لا يمكن نكرانها أو التغاضي عنها. لكن القضية

العكسية، تكون دون ريب، صحيحة جدا. فقد عارضت المدرسة السلوكية لمدة طويلة، فحص وتشخيص الظواهر العقلية. ينبني هذا التحاشي على فكرة مفادها أن الداخل (الوجدان) النفسي، لا يمكن التوصل إليه، سواء عن طريق الملاحظة أو بواسطة القياس. كان بإمكان القياس النفسي أن يواجه هذا الاعتراض، بحجتين اثنتين على الأقل: الانتظام الإحصائي لنتائجه وخارجية (موضوعية) طرائقه [الاختبارات تزوده بوسيلة ضبط، لا يمكن تجنيدها في حالة الفحص الاستبطاني].

لقد منحت دراسة توزيع الخصائص الفردية الداخلية (أداء قياسي، تحفيز، الخ) واسطة حقيقية لهذا الاختصاص، بعد الحرب العالمية الثانية. وقد استدعى هذا الازدهار مطلب العقلنة الذي كان يحكم تطور إجراءات الانتقاء والتقييم في قطاعات: العسكرية، التربية، العمل أو الصحة. لكن النجاح الباهر الذي حققته تقنية القياس النفسي، يخضع هو كذلك إلى أن القياس يتموقع بين مجموعة من العلوم؛ أي بين البيولوجيا والعلوم الاجتماعية. وينبني الطابع المنتشر للاستعدادات، بصفة لا عادلة في الواقع، على الاعتقاد بوجود ميراث فردي، يتولد من عوامل متعاضدة للوراثة والانتقال الثقافي. لكن البرهنة على هذه السوابق السببية، تم تفويضها لفائدة العلوم التي يكون القياس من بين أحد اختصاصها. هكذا، يمنح علم نفس الطبائع، سبيلا للتمفصل القائم بين عوالم عضوية وأخرى اجتماعية، لكنه لا يستدعي تناولها. ورغم ذلك، فإن تنظيم ذلك الدليل يجمع هنا بين اللغة الإحصائية، تعيين الظواهر وأداة البحث العلمي، في إطار لعبة توازنات من الصعب تفكيكها أحيانا. وبالفعل، إذا كانت العمليات الرياضية، تبرهن على وجود خفي لعامل معين، يمكنها كذلك [بأثر تبادلي] أن تؤسس بالأدلة الكافية جودة الاستمارة التي يفترض أنها تقوم بقياسه. هذا الغموض الأصلي لا يمكنه، سوى أن يفسر عملية التتابع اللامنقطع للعمليات والنقاشات ويرتب علامات تاريخ الاختصاص منذ نشأته.

يتم بناء الاستمارات، انطلاقا من عينات مختارة من السكان التي يمكن دائما أن نعيد النظر في تمثيليتها. وبالرجوع إلى قانون الأعداد الكبيرة ونظرية الأخطاء، فإن المقاربة التقليدية، عن طريق الاختبارات – المسماة "النتيجة الصحيحة" – تقبل بإمكانية صياغة سؤال يمكن أن يبرهن عليها، إذا كنا قادرين على تكرار نقلها بشكل لانهائي. إذا كنا غير قادرين على إجراء مثل هذه العملية، فإن علم النفس قد تصور

إجراءات أخرى بديلة: من بين هذا النوع من الإستراتيجيات، على سبيل المثال، اختبار "اختبار – إعادة الاختبار" ("Test-Retest") الذي يستهدف مقارنة النتائج التي تم الحصول عليها بالاستمارة من السكان أنفسهم، الذين تم استجوابهم في فترتين زمنيتين متباعدتين. لكن هذه التقنيات، تقيّم بالخصوص ثبات أو تجانس الأداة وليس مصداقيتها. وتظل المسألة المطروحة كاملة، بشأن معرفة في أي مستوى، يمكن تطبيق الاختبار بشكل جيد على الظواهر التي يفترض أن يكممها. وفي هذا الصدد، فقد كتب **ل. كرونباخ** (Lee Cronbach 1916-2001) مقالة مرجعية في سنة 1955، اقترح فيها أن يتم إخضاع الأدوات، إلى معيار مصداقية خارجي. إنه كان يدعو إلى تقييم مدى ملاءمة الاختبارات، عن طريق لعبة مجموعة من الفرضيات، بواسطة إضافة البعد المقاس إلى تقييم عوامل أخرى، سيكو – اجتماعية وبيولوجية. لكن هذا الحل، يعني حرمان القياس النفسي من أحد عناصره الجوهرية: إنها تجبره على تأسيس أدلته عبر دراسة العلاقات بين الظواهر: أي على منطق ما بين المفاهيم (Logique Interconcept). وهي المقاربة المفضلة، من قبل العلوم الاجتماعية التي لا تنطلق أبدا من تحليل التوزيع الداخلي للموضوع: أي من منطق داخلي بين المفاهيم.

وهكذا برز النقاش الآخر القديم جدا، اليوم: ذلك الذي كان يتناول الطبيعة المترية للمقادير السيكولوجية. إذ يتطلب القياس علاقة تماثلية، بين الخاصية المقدرة ونظام الأعداد. بعبارة أخرى، تكون الظاهرة قابلة لمقاضاة العمليات الرقمية، إذا تم التحقق من أن كافة الوحدات المسجلة، تمتلك أصلا (صفرا) وتكون أبعادها ثابتة. حيث يمكن للفيزياء، عن طريق التأثير في المادة، أن تحاول تقدير هذه التماثلية. لكن مثلما أشار إلى ذلك الفيزيائي **و. كامبل** (W.W. Campbell 1862-1938) منذ عام 1933، كيف يمكن التأكد من أن الوحدات المدروسة، من طرف علماء النفس، تتمتع بهذه الخاصية؟ لقد جنبت تعريفات أكثر توافقا [مثل ذلك الذي تخيله **س. ستيفنس** (S.S. Stevens 1906-1973) تحديدا في سنة 1951] تقنية القياس النفسي مطولا [وكذلك العلوم الاجتماعية] ضرورة الإجابة عن هذه المسألة: في هذا الإطار، وفقا للمبدأ المسمى "تمثيليا"، يشير القياس إلى مجموعة من الخصائص بواسطة الأرقام؛ أي إلى التنبؤ القبلي بالطابع الكمي للموضوع.

إن النقاش الذي افتتح مجددا عام 2000، من طرف **ج. ميتشال** (J. Michell)

تطلب نوعين اثنين من الأجوبة. النوع الأول من الأجوبة، هو الذي اقترحه **ب. كلاين** (P. Kline, 2000) الذي يفيد بضرورة ضمان الطابع المتري للمقادير التي قيّمت بفعل ارتباطها بالنتائج التي تم التوصل إليها، في اختبارات أخرى مقارنة بتلك التي أجريت انطلاقا من عوامل فيزيائية (سرعة الإجابة) أو فيسيولوجية قابلة للقياس. ستضع هذه التقنية، إذا تم العمل بها حدا للقياس النفسي، لأنه مهما كان الاختبار البيومتري، فسيكون بديلا عن الاستمارات السيكولوجية. إن المنظور الآخر الذي افتتح في سنوات 1960، عن طريق النموذج المدعو "إجابة عن السؤال" ("Réponse à l'Item") كان ذا طبيعة رياضية. يعود هذا الحل الذي اقترحه **ج. راتش** (G. Rasch 1901-1980) إلى ضرورة تثبيت التوزيع النظري للأجوبة، عن طريق معادلة احتمالية، على افتراض أن هذه الأجوبة، تقوّم بمقدار متري، ثم ملاحظة إلى أي مدى يتم تأكيد المعطيات الملتقطة لهذا النموذج. على كل، مهما كانت صيغة هذه الطريقة، (قانون بواسون، قياسات مشتقة) فإنه لا يمكنها أن تصف طبيعة المقادير المقيمة. وهو ما لا يحول، دون طرح التساؤل حول مصداقيتها.

سواء تناولنا إشكالية القياس النفسي، مقارنة بالقياس أو بطبيعة الوحدات المدروسة، فلا يزال هذا الاختصاص العلمي يواجه مشكلة، تتعلق بواقعية موضوعه. وهذا ما يعرضه أو ينسبه إلى فرع من الإحصاء أو يجعله يتشتت (ويزول) بين حقول البيولوجيا والعلوم الإنسانية. وفي الواقع، فقد تعارض القياس النفسي والعلوم الاجتماعية، في غالب الأحيان. بشكل عام، فقد اعتبر علم الاجتماع بالتحديد، أن الاختبارات السيكولوجية، تعمل على تطبيع المقولات الاجتماعية. بهذا المعنى، ففي سنوات 1960، تم التنديد بمفهوم الاستعداد (Aptitude) بوصفه ميزة فردية، كإحدى كوارث الأيديولوجيا المدرسية. لكن منذ سنوات 1970، تزحزح مركز موضوع القياس النفسي، إذ لم يعد الأمر يتعلق بتقييم المهارة أو الحافز [أن تكون قابلية أو استعدادا] بل بإنتاج قياس يخص فردانية الأفراد. وتحتل اختبارات الشخصية هنا، مكانة هامة. لقد تم استخدام هذه السلالم بدرجة أولى، في الكشف عن الأمراض العقلية، قبل أن تخصص لتقييم الأمراض النفسية أو الانحرافات السلوكية. وبهذه المناسبة، فقد اعترضت السوسيولوحيا مجددا طريق علم الاختبارات (Testologie): إذ يؤول وصف الانحراف، انطلاقا من خصائص الشخصية في الحقيقة إلى إرجاع

ظاهرة التجاوز إلى انحراف في الشخصية، دون الاعتداد بالرهانات الاجتماعية التي تحكم تعريف القواعد الاجتماعية ومخالفتها.

ومنذ 1990، فقد توسعت عملية البحث في الخصوصية الفردانية إلى القياسات المسماة "ذاتية". لقد تم فتح هذا المجال في علم الاجتماع، بواسطة البحث عن مؤشرات أو عوامل (Indicateurs) بنائية، تتعلق بإشكالية الرفاهية (معدلات البطالة، المدخولات المتوسطة، الخ.). لقد استحوذ القياس النفسي بشأن "نوعية الحياة"، على هذه المبحث بحيث أنه فضل تجربة الأفراد. وفي هذا الإطار، يكشف الشخص الذي يجيب عن طموحاته للفاحص، ثم يعيّن بالنسبة إلى كل إجابة عن درجة الرضا، بشأن الحالة الراهنة. وعلى عكس الذكاء، لا يمكن أن تكون الرفاهية خاضعة لاستعدادات معينة: حيث يكون تعريفها مفروضا عن طريق مزاج الشخص المجيب. ويمكنها أن تختلف من شخص إلى آخر، ومن هنا يتكون الطابع الذاتي للقياس. رغم ذلك، فإن هذا القياس النفسي، ينسب نفسه دائما للموضوعية. في الواقع، مهما كانت الطموحات شخصية، فهذا لا يعني بالنسبة له، أن الأفراد يكونون قادرين على الحكم العقلاني – أو الصادق – بشأن مستوى معيشتهم. ولهذا، يتدخل التمييز في الغالب، بين الأبعاد العقلية والأبعاد الوجدانية في عملية التقييم. وإذا أخذنا بعين الاعتبار، طبيعة الأقوال وشحنتها الانفعالية معا، فقد تزعم بعض الاختبارات هكذا، أنها تسمح بالتعرف على الاستثمارات الفعلية ومن وراء ذلك على رضا المجيبين بالفعل. يستهدف هذا النوع من التقييم جوهريا، أن يحقق قياسا موضوعيا بصدد الإنجاز أو الأداء الشخصي. وتتمثل الذاتية التي توجد هنا، في إمكانية أن يحدد كل فرد أهدافه الخاصة التي يمكنها إذن، أن تتلقى برهانا متريا. توجد هنا ونحن لا نشك في هذا، عناصر نقاش قادم بين القياس النفسي والعلوم الإنسانية.

كتاب أسود ضد التحليل النفسي

لقد اضطر التحليل النفسي مرارا إلى مواجهة انتقادات حادة نوعا ما، وإن كانت أحيانا مؤسسة شيئا ما. إنها تنبعث في الأساس، من خطابات وممارسات علاجية أخرى [طب الأمراض العقلية، ومختلف تيارات علم النفس] ومن الفلسفة التي تهاجم بعض جوانب النظرية الفرويدية، من حيث: نزعتها الوضعية، نموذجها

الأسري، مركزية الحياة الجنسية فيها، الخ. وفي عام 2005، بعد نشر مؤلف "الكتاب الأسود للتحليل النفسي" (Livre noir de la psychanalyse)، تحت إشراف **ك. ميار** (Catherine Meyer) فقد تمحور النقاش تحديدا حول الجدال العنيف الذي صدر عن علماء النفس السلوكيين والمؤرخين الذين انتقدوا بشكل لاذع مشروع **سيجموند فرويد**. جاء هذا الكتاب، لكي يحط من التحليل النفسي، بوصفه نظرية وممارسة ميتاسيكولوجية، من خلال خمسة محاور، هي: الوجه الخفي من التاريخ الفرويدي، لماذا حقق التحليل النفسي مثل هذا النجاح؟ التحليل النفسي ومآزقه، ضحايا التحليل النفسي، بالإضافة إلى عرض عن حياة **فرويد**. استعرض أصحاب هذا الكتاب، بشكل تركيبي إن لم نقل تلخيصي، الأبحاث الرئيسية التي قام بها مؤرخون مستقلون ونقديون، ضد النزعة الفرويدية. وتتمفصل قضايا هذا العرض، حول المباحث التالية: 1- أساطير وحكايات التحليل النفسي، 2- حالات الشفاء الخاطئة، 3- فبركة معطيات التحليل النفسي، 4- أخلاق التحليل النفسي.

كان الهدف الأساسي من الدراسة، هو إثبات التفاوت الهام بين التاريخ الفعلي للتحليل النفسي والتاريخ الخاص بفرويد، مقارنة بالتاريخ الرسمي له. وسيحاول هؤلاء المؤرخون الذين كانوا في معظمهم أنجلوسكسونيين، يطلقون على أنفسهم اسم "علماء فرويد" ("Freud Scholars") أن يبرهنوا، بواسطة أدلة تاريخية قابلة للتحقق، بأن الأساطير التي بنيت حول شخصية **فرويد** والتحليل النفسي هي التي تعكر الحقيقة، حول ما كانا عليه وما وصلا إليه، أحدهما كما الآخر. وهم يستدلون على ذلك، مثلما كتب **م. بورش - جاكوبن** (Mikkel Borch-Jacoben) بحقيقة مفادها أن التحليل النفسي لا يمكنه أن يصمد أمام "شرطة الماضي". يكشف هؤلاء المؤرخون، مجموعة أكاذيب عند **س. فرويد** (وبعضا من مؤرخي سيرته الذاتية) بشأن الموضوعات التالية: 1- دراساته الإكلينيكية، 2- عتاده الإكلينيكي، 3- نتائجه العلاجية، 4- مدى وإبداع نتائجه النظرية والتطبيقية، 5- وحول مناهجه في العمل، هذا من جهة.

ويكشفون من جهة أخرى، كيف تم التشييد التدريجي لأساطير حول شخصه، عبقريته العلمية المزعومة والفعالية الثورية لعلاج التحليل النفسي. وتتجه أعمال المؤرخين أمثال **فرانك سوللواي** (Frank Sulloway) في كتابه "فرويد بيولوجي العقل" (Freud biologiste de l'esprit)، **م. بورش - جاكوبسون** (Mikkel Borch-

Jacobsen) وص. **شمدزاني** (Sonu Shamdasani) في مؤلف "ملف فرويد. تحري حول تاريخ التحليل النفسي" (Le Dossier Freud. Enquête sur l'histoire de la psychanalyse) وكذلك أبحاث كل من **ف. كروز، ف. سيوفي، هـ. إزرائيلز، ج. فان ريلار، ر. فيلكوكس، أ. إيسترسون، ر. فيبستير، ر. بولاك، ب. ماهوني،** الخ (Frédérik Crews, Frank Cioffi, Han Israëls, Jacques Van Rillaer, Robert Wilcocks, Alen Esterson, Richard Webster, Richard Pollak, Patrick Mahony) كلها نحو إلغاء أسطورة ما يعتقده مؤلفو هذا الكتاب، بمثابة القصص الكاذبة والمشوهة التي تم بناؤها وتغذيتها حول شخص **فرويد** والتحليل النفسي. ويتجه نشر رسائل **فرويد** الموجهة إلى **فليس** (Fliess) هي الأخرى أيضا في منحى هذا العمل، حتى وإن لازالت كثير من الأرشيفات مخزنة، في مكتبة الكونجرس في العاصمة الأمريكية واشنطون. وهي لا تزال ممنوعة على المؤرخين إلى غاية 2052.

لا يمثل "الكتاب الأسود للتحليل النفسي"، محصلة أبحاث هؤلاء المؤرخين، لكنه يشكل مقاربة مختصرة عن تلك الأبحاث. لقد تمت كتابة هذا المؤلف، بهدف الدفع إلى ضرورة التزود بالمعلومة بشكل مفصل أكثر حول تلك الأبحاث، من أجل البوح بالمعلومات اللازمة للجمهور الفرنسي العريض. بعض المؤرخين المهمين والنقديين اتجاه التحليل النفسي، أمثال **ج. بنيسطو** (Jacques Bénesteau) لم يستطيعوا المشاركة في هذا الكتاب، كما هو حال الفيلسوف **ج. بوفريس** (Jacques Bouveresse). لقد تم نقد التحليل النفسي، بوصفه المنهج المعتمد في سبر غور النفس البشرية، كمجموعة من النظريات وكمعالجة، من وجهة نظر منهجية، على غرار ما قام به **كارل بوبر**. مع ذلك، فإن بعض الكتاب، أمثال **كروز** أو **سيوفي** يعارضان نوعا ما هذا النقد البوبري، حول مسألة تكذيب أو تفنيد المدونة الفرويدية. وبشأن فعاليته، يوجه النقد للتحليل النفسي، كعلاج أو كحمية لأنه قليل الفعالية، قليل الثقة مقارنة بالعلاجات المعرفية – السلوكية الأخرى التي تستخلص من المدرسة السلوكية وعلم النفس المعرفي. إذ يكون المحلل النفساني، في بعض المجتمعات أو الجماعات، هو المريض القديم نفسه، دون امتلاكه أية مشروعية أو شهادة جامعية أخرى، حيث تغازل ممارسته حسب البعض، الممارسة غير المشروعة في ميدان الطب. ذلك أن أمثال **م. كلاين، أ. فرويد، أ. رنك، ث. ريك، م. بونبارت، ل. أندرياس – سالومي**

Mélanie Klein, Anna Freud, Otto Rank, Theodor Reik, Marie Bonaparte,) Lou Andreas-Salomé) للاكتفاء بهذه الأسماء فقط، لم يكونوا لا أطباء ولا علماء سيكولوجيين.

يشير أصحاب هذا الكتاب من جهة أخرى، إلى أن ممارسة التحليل النفسي الفرويدي، قد فقدت من بريقها في جزء كبير من العالم، باستثناء دول، مثل: فرنسا، الأرجنتين وسويسرا. يضع هذا الكتاب أصبعه على موطن جمود التحليل النفسي الفرويدي واللاكاني الذي تبتعد ممارساته ونظرياته أكثر فأكثر، عن تطورات المعرفة النفسية: "كان الفرويديون بالأمس من الثائرين وفي مقدمة المتحدّين، لكنهم تحولوا اليوم إلى مثقفين متذبذبين وعدوانيين بشكل تعسفي، يدافعون عن قلعتهم بحجج دوجماتية. إن تجمد التفكير لديهم بائن: إذ أنهم يرفضون نشر بحوث المؤرخين النقديين إزاء **فرويد**. وهم ينغلقون أمام الكشوفات العلمية المحرجة ويقاطعون الأبحاث التي تقيم فعالية العلاجات النفسية [تلك التي ليست في صالح التحليل النفسي]. ويستنكر العديد من مؤلفي هذا الكتاب وأولئك المكلفين بنشره، قانون الصمت الإعلامي المطبق الذي يخيم حسب رأيهم في فرنسا، حول نقد التحليل النفسي. ناهيك عن الغلق الممارس على جزء من أرشيفات **فرويد**، من قبل من ورثته. وقد تعرضت جرائد عديدة لهذا الكتاب وتبعتها نقاشات أثارها المؤلف، خاصة جريدة **لوموند** في فرنسا، لكن هناك أيضا جرائد أجنبية أخرى عديدة، شاركت في نشر حيثيات هذه الخصومة: في ألمانيا (Frankfurter Allgemeine Zeitung)، سويسرا (Le Temps)، بريطانيا (The Observer) وهولندا (NRC Hangelsblad). وقد اتهم المدافعون عن النزعة الفرويدية، هذا الكتاب بكونه يمثل تشهيرا بفرويد، كما قد يكون في صالح العلاج السيكو – معرفي – السلوكي. لكن، تجب الإشارة هنا إلى أن أربعة فقط، من هؤلاء المؤلفين للكتاب الأسود في التحليل النفسي، ينتسبون إلى هذا التيار [أما الآخرون فهم من المؤرخين، الفلاسفة، أطباء الأمراض العقلية أو أمراض الأعصاب (Psychothérapie cognitivo-behavioriste)] أما إ. **رودينسكو** (Elisabeth Roudinesco) فيما يخصها فقد تهجمت على دار النشر (Les Arènes) التي اتهمتها، بأنها متواطئة مع أطروحات مؤامراتية.

دفاع عن التحليل النفسي: ما الجديد منذ ك. بوبر؟

هل استطاع المناوئون للتحليل النفسي، أن يشوهوا المشروع الفرويدي، من أجل نقده بشكل أفضل؟ هناك عدة دواعي تقودنا إلى الاعتقاد في ذلك. لكن، يبدو أن الدفاع عن التحليل النفسي، مثلما تقوم بذلك **ف. ميشلي – ريتشمان** (Vannina Micheli-Rechtman) لا ينصفه بالكامل. وقد جاء مؤلف **ميشلي – ريتشمان** لكي يبتعد عن هذه الحوادث الملهبة ويقدم بعضا من الانتقادات الفلسفية الكبيرة، اتجاه التحليل النفسي (Micheli-Rechtman, 2007). وقد توصلت المؤلفة هكذا إلى موقعة أصالة **فرويد**، في النقاشات الإبستمولوجية للقرنين 19–20م.

في الحقيقة، يسمح تمهيد الكتاب بالتأقلم مع بعض انتقادات التحليل النفسي التي تأتت من العالم الأنجلوسكسوني والتي لسنا دائما على اطلاع بها. ما هو الجديد إذن، منذ **ك. بوبر** (K. Popper 1902-1994)، يمكننا أن نتساءل؟ إننا على دراية جيدة بالحجج التي أسداها صاحب كتاب "منطق الكشف العلمي" (La logique de la découverte scientifique) للتحليل النفسي: إنها تتمثل في أن التحليل النفسي، يقدم نماذج علم مزيف، لأن منطلقاته لا تقبل التكذيب. وفي سياق سنوات الثلاثينات، فقد كان من الطبيعي أن كل شيء جائز، باستثناء القول بأن الماركسية والتحليل النفسي، ليس لديهما من العلم سوى الزعم. تتركز هذه الحجة على مفارقة لذيذة: فهاتان النظريتان هما أقل من أن تشكلا علمين، مثلما تحاولان البرهنة على ذلك. وتذكر **ميشلي – ريتشمان** تحديدا، بأحد الأمثلة المفضلة التي يوظفها **بوبر** وبنموذجه التبريري: إذ يتخذ **بوبر** (...) مثال الأحلام المعاكسة للرغبات أو الكوابيس، حيث يتفحص أجوبة **فرويد** إزاء تلك الأمثلة المضادة. وهي تتمثل في احتمال، أن توجد عند المريض رغبة في أن يثبت **لفرويد** بأنه قد أخطأ، وهذا ما يسمح بتأكيد أطروحة "الحلم – الرغبة" (rêve-désir). هذا هو، حسب **بوبر** في الوقت ذاته، أسلوب الخروج عن القاعدة العلمية التي تقر بضرورة التركيز [داخل بناء النظرية العلمية] على الفرضيات التي تتعرض أكثر من غيرها للتكذيبات الأمبيريقية وكيفية إنتاج الشعور، بعدم الانبهار الذي لا يعتبر من طبيعة إبستمولوجية، لكنه من طبيعة سوسيولوجية" (pp. 22-23). لكن، هل يتعلق الأمر وحسب عند **فرويد**، بقضية سلطة على مرضاه أو أن تلك السلطة هي سلطة التأويل ذاته، في قدرته على خلق المعنى. على أية حال،

إننا لم نعد أبدا في إطار قواعد العلوم الفيزيائية، ذلك أن **فرويد**، لم يدع مطلقا إلى هذا النمط من الصرامة، على الأقل، بسبب غياب قياس دقيق للطاقة الفيزيقية، من جانب آخر.

لكن كما قلنا، تتمثل الغاية من هذا التمهيد في تمديد الانتقادات الكلاسيكية، بواسطة البحوث الحديثة جدا التي قام بها **أ. جرانبوم** (Adolf Grünbaum) والتي ليست معروفة في فرنسا. كان هذا الأخير أستاذ فلسفة العلوم في جامعة بيتسبورج، وهو صاحب كتاب "أسس التحليل النفسي: النقد الفلسفي" (The Foundations of Psychoanalysis: A Philosophical Critique) الذي ترجم إلى الفرنسية عام 1984، تحت عنوان "أسس التحليل النفسي" (Les Fondements de la psychanalyse)، حيث عالج فيه صاحبه، نقدا فيزيقيا خالصا، موجها ضد **بوبر**، بشأن التحليل النفسي. يتعلق الأمر فيه، بضرورة أن نأخذ في الحسبان الادعاء العلمي، عند **فرويد**، ونبين أن أهم المفاهيم الأساسية الفرويدية وبدرجة أولى الكبت، تعاني كلها من عيوب نظرية خطيرة. كما أن ادعاء المصداقية التطبيقية للنظرية، هو أيضا ضعيف. يهاجم **جرانبوم** في الوقت نفسه، القراءات الجديدة التأويلية التي قام بها كل من **ب. ريكور** (P. Ricoeur 1903-2005) **وي. هابرماس** (J. Habermas) اللذان يعاتبهما على عدم أخذهما في الحسبان، مبدأ السببية الفيزيقية عند **فرويد** وكذلك حجج **بوبر** الذي يرفض أن يهاجم الادعاء "الفيزيقي" للنظرية الفرويدية بالتحديد. ومثلما تقول **ميشلي- ريتشمان** بحق، أن وجهة النظر هذه، تؤدي إلى تأكيد فيزيائية التحليل النفسي، من أجل دحضه بشكل أفضل. ويمثل هذا بطبيعة الحال، خبرا سارا عند أنصار العلوم المعرفية الذين يتطلعون إلى استبدال التحليل النفسي، بدراسة علمية للميكانزمات الدماغية. ويؤول هذا بشكل عام جدا إلى التساؤل، حول الانتقادات التي ترفض أن تأخذ في تقديرها، أية إمكانية إبستمولوجية خاصة بالتحليل النفسي. إذا لم يكن **فرويد** هو نفسه، كما قلنا، يزعم مطلقا، أن التحليل النفسي هو من اختصاص حقل العلوم الفيزيقية، وعالم تفكيره، فإن رؤيته للعالم ("Weltanschauung") لا يمكنها أن تكون سوى عالم العلم وليس الفلسفة، الفن أو الدين.

لقد تم تخصيص هيكل المؤلف إذن للإبستمولوجية الشهيرة التي تختص بالنزعة الفرويدية. إنه موضوع شاسع ومهم جدا، ينتظر القارئ منه الشيء الكثير.

فمما جاءت إذن، خيبة الأمل النهائية؟ لقد تولدت خيبة الأمل تلك من جهة، من غياب الربط الواضح بين المقاربات الثلاث الكبيرة التي تشكل الأجزاء الثلاثة من الكتاب: النقاش مع الهيرمينوطيقا، النزعة الوضعية وكذلك مع **ل. فيتجينشتاين** (L. Wittgenstein 1889-1951). وقد جاء الجزء الثالث من المؤلف، بشكل تعسفي، كاملا: فلماذا تم تفضيل النقد الفيتجينشتاني، مهما بدا هذا الأخير مهما؟ لكن هذا لا يمثل، دون ريب، القضية الجوهرية: لقد تم افتتاح النقاش فحسب، من أجل القيام بمقاربة تاريخية بالأساس. إذ نعثر في كل جزء من الكتاب، على ملخص عن تاريخ المفاهيم التي تشكل محل الرهان. يقدم لنا الجزء الأول هكذا، نظرة تاريخية عن الهيرمينوطيقا، منذ العصور القديمة التي لا يمكن أن تكون فيها سوى سطحية، بالنظر إلى حجم الكتاب. وتذكرنا الصفحات التي خصصت للمفكر **و. ديلتاي** (W. Dilthey 1833-1911) ببروز التعارض الأساسي في العلوم الإنسانية، بين عمليتي التفسير والفهم. تكمن أصالة **فرويد**، بحسب صاحبة الكتاب، في أنه قد أمسك بحزم بالتفسير (الاستدلال السببي) مع اغترافه من نظرية تأويل قدرة التحليل النفسي، على منح المعاني للتشكيلات اللاشعورية. وبالمقابل، تكشف لنا **ميشلي – ريتشمان** بصورة مقنعة، عن حدود المقاربة التأويلية الخالصة، عند **ب. ريكور**. إذ يرجع هذا الأخير بالفعل، عملية التأويل في التحليل النفسي إلى نظريته الخاصة التي تتمثل في أنه يجعل من الهيرمينوطيقا، لحظة إعادة استحواذ انعكاسية للمعنى، بالنسبة للموضوع. تشدد الكاتبة بصدق، على حقيقة مفادها أن **فرويد** يكون قد عثر على قواعد التأويل، بالنسبة لعتاد لا يتوفر على أية صلاحية لأن يفهم. ويبين **فرويد** هكذا، طبيعة التباين القائم، بين فك شفرات اللغات القديمة والأحلام. إن اللغات "مخصصة، لكي تشكل وسيلة اتصال، إذن لكي تفهم بكيفية أو بأخرى. لكن، هذه الخاصية تحديدا هي التي تنقص الحلم. فالحلم لا يقترح أن يقول شيئا لأي كان، وأبعد من أن يشكل أداة اتصال، فهو مخصص لأن يظل لا مفهوما" (Micheli-Rechtman, op. cit, p. 122). إنه قول جد قوي ومهم، يبين جيدا كيف أن **فرويد** لم يتموقع أبدا في التقليد الهيرمينوطيقي الديلتاوي، لكنه يكون قد اخترع تقنية تأويل، متكيفة مع موضوع لا يقدم نفسه، بشكل مقنّع وحسب، لكن قِناعه هو بمثابة جوهره نفسه. لا يمكن إذن، سوى أن نكون متفقين مع الكاتبة، عندما اختتمت الجزء المخصص للتأويل، بهذه

العبارات: "الحلم ليس نصا تأويليا ينتظر منهجا لفك الرموز؛ إنه سيرورة لاشعورية تخضع لقوانين داخلية، تمثل – مسبقا – ترتيب اللغز الذي ستتبعه. إن المغايرة أو الاختلاف هو من الحجم الكبير، لأن **ريكور** يزحزح مسألة القواعد إلى القاعدة التقنية للتأويل، بينما يموقع **فرويد** القواعد في قلب السيرورات اللاشعورية نفسها". يمكن أن تثير هذه الملاحظة الإيحائية، تفكيرا معمقا حول مكانة التأويل الفرويدي نفسه، ذلك لأن المسألة لم تحسم بعد. وسواء كان الحلم مخصصا لكي لا يكون مفهوما، فهل يسمح هذا باختتام وضعية **فرويد** إزاء الآداب ("Geisteswissenschaften")؟ هل يمكن أن تكون أصالة هذا الموقف، متضمنة بالكامل في الفكر المجتر مرارا، منذ **ج. لاكان** (J. Lacan) الذي يتمثل في أن موضوع التحليل النفسي هو في الأصل "موضوع الظاهرة المرضية"؟

الإبستمولوجيا الفرويدية

وفي الأخير، هذه هي الإجابة الوحيدة التي يمكن أن يحصل عليها القارئ، بشأن مجموعة من الأسئلة المشروعة. يخضع **فرويد** الحقل المحدود جدا في زمنه [الذي يعارض بين علوم العقل وعلوم الطبيعة] إلى منعطف غريب، حيث يستلف اللغة السببية من الثانية، بغية إنتاج تحليلات تأويلية خاصة بالأولى. وبدلا من أن تتحمل الكاتبة على عاتقها، وزر هذه القضية بكاملها، فإنها قامت بتفصيلها اصطناعيا، حيث خصصت الجزء الثاني من النقاش إلى مكانة العلم. ونعيد هنا من جديد، قراءة ما تمت كتابته، خاصة من قبل **ب – ل. عسون** (P-L. Assoun) الذي أشارت له الكاتبة، حول المصادر الفيزيقية للنزعة الفرويدية. لا نعثر على شيء جديد هنا. والشيء الغريب في كل هذا، أنه لم يتم تخصيص ما يمكن أن يشكل المصدر الأساسي جدا من **فرويد**، أبعد من إبستمولوجيا **إ. ماخ** (Ernst Mach 1838-1916): أي فلسفة **شوبنهاور**. فكيف يمكن إذن، أن نفهم القدرة العجيبة التي يتمتع بها **فرويد**، لكي ينتقل من النماذج الوضعية الخالصة إلى التأملات الميتافيزيقية الصرفة، حول الدوافع الكبيرة، إذا أهملنا الأستاذ الكبير للإرادة، الذي نعثر على بعض من موضوعاته شبه مطابقة، في نموذج النزعة النفسية الفرويدية: اللاشعور "خارج الزمن"، الأنا الـ"مساحة"، الجنس كرغبة الرغبات، التشاؤم الأساسي، الخ. إذ يمثل **شوبنهاور** هو ذاته من جهة

أخرى، نموذجا أساسيا بالنسبة لأصحاب "اليمين الفيزيقي" في عام 1845م، لأنه كان يسمح في الوقت نفسه، باستعمال المنهج العلمي الصارم، القابل للتطبيق على العالم السطحي "للتمثل". ويترك إمكانية التفكير، حول المصادر العميقة والميتافيزيقية، شريطة أن نحترم الحدود جيدا... لكن هنا أيضا، تكتفي **ميشلي – ريتشمان** بذكر الصفحات الشهيرة جدا من المحاضرة 35 التي يعبر فيها **فرويد** عن توجسه إزاء الدين. وبطبيعة الحال، ليس النقاش مع **فيتجينشتاين** هو الذي سينيرنا أكثر حول المسألة، لأن خاتمتها تتمثل في تكرار ضرورة أن يتنبه المناهضون المعاصرون للتحليل النفسي إلى أن هذا التخصص يمتلك إبستمولوجيته الخاصة. وأن محاولة تقديرها وفقا لمقاييس العلم، ليس بهدف إعادة الاعتبار لها، لكن من أجل تكذيبها. وهنا أيضا، فقد صدقت **مشيلي – ريتشمان** بقولها أن هذه: "المقاربة، ترتكز على خلط بيت التقييم العلمي لتخصص (...) وتوضيح إبستمولوجيا هذا العلم". لكن في اللحظة التي يرغب فيها القارئ، أن يرى بحق بداية تحليل هذه الإبستمولوجيا الخاصة، فإن الكتاب ينتهي...

يمكننا إذن، أن نصوغ فرضيتين اثنتين. إما أن الكاتبة تحضر لكتاب ثاني. وإما [وهذا ما يبدو لنا للأسف هو أكثر احتمالا] أن القارئ مدعو للاكتفاء بهذه التيمة المفهمية الحقيقية التي صارت مألوفة في الكتب التي "تدافع" عن التحليل النفسي وتعبر عن "موضوع المريض". يجب ربما أن نخصص مؤلف كاملا لهذا الموضوع الغريب، الذي تحولت له هذه الصيغة التي قد يفحم تأثيرها السحري ربما أية مناقشة. تستعيد الكاتبة هكذا، دون أية مسافة، مشكلة المرجعية اللاكانية إلى **ر. ديكارت** (R. Descartes 1596-1650) الذي يكون قد اخترع "موضوع العلم"، بواسطة الكوجيطو؛ ذاك الموضوع الذي تقع فيه المقاربة الفرويدية. وبحسب **لاكان**، فإن هذه التسمية الـ"علمية"، المنتقدة جدا هي التي سمحت **لفرويد** بـ"اكتشاف" موضوعه الخاص؛ أي "المريض". لكن بشأن "موضوع المريض" هذا، فإننا لا نعرف شيئا، إلا أنه يشكل أساس إبستمولوجيا التحليل النفسي، والتحليل الخيالي الذي يتجه له الكتاب، دون أن يقدم لنا مضمونه. في الختام، يمكننا أن نتساءل، هل يعتبر ذلك، إنصافا **لـفرويد**، بدلا من الدفاع عنه، عن طريق رفع الراية اللاكانية، الذكية جدا التي لا يمكن أن يجد فيها أستاذ فيينا نفسه: فهي فلسفية جدا في نظره؛ أي أن هناك ميل للهروب من الواقع في حقل هذه المفهمة الفلسفية...

قائمة بيبليوجرافية

(1 Assoun P-L. (1980), Introduction à l'épistémologie freudienne, Paris, éd. Payot.

(2 Aulagnier P. (s.d), Psychanalyse. Remarques sur la structure psychotique, Paris, éd. P.U.F.

(3 Bertrand François-L. (1930), Alfred Binet et son œuvre, Paris, éd. Félix Alcan.

(4 Capshew J.H. (1999 [19291969-]), Psychologists on the march. Science, practice, and professional identity in America, Cambridge, Ed. Cambridge University Press.

(5 Castoriadis C. (1975), L'Institution imaginaire de la société, Paris, éd. Seuil.

(6 Cronbach, L. J., Coefficient alpha and the internal structure of tests, in Psychometrika, n° 16 (3), pp. 297334-.

(7 Cronbach I. J. & Meehi P.E. (1955), "Construct validity in psychological test", in Psychological bulletin, n° 52, pp. 281302-.

(8 Danziger K. (1990), Constructing the subject. Historical origins of psychological research, Cambridge, Ed. Cambridge University Press.

(9 Devereux G. (1983 [1972]), Essais d'ethnopsychiatrie générale, Paris, éd. Gallimard.

(10 Dickes P., Tournois J., Flieller A. et Kop J-L (1994), La psychométrie. Théories et méthodes de la mesure en psychologie, Paris, éd. PUF.

(11 Diener E., Oishi S. & Lucas R.E. (2003), "Personality, culture and subjective well-being. Emotional and cognitive evaluation of life", in Annual review of psychology, n° 54, pp. 403425-.

(12 Enriquez G. (1983), De la horde à l'État, Paris, éd. NRF.

(13 Freud S. (1913), L'Intérêt de la psychanalyse, in Gesammelte Werke, Fischer, vol. VIII, pp. 390-420.

Freud S. (1923), Totem et Tabou, Paris, éd. Payot. (14

Freud S. (1939), Moise et le monothéisme, Paris, éd. N.R.F. Gallimard. (15

Freud S. (1968 [1921]), Psychologie des foules et analyse du moi, Paris, éd. Payot. (16

Freud S. (1968 [1920]), Au-delà du principe de plaisir, Trad. S. Jankélévitch, Paris, éd. Payot. (17

Freud S. (1984 [19151917-]), "Sur une Weltanschauung", In Nouvelles Conférences d'introduction à la psychanalyse, Paris, éd. Gallimard. (18

Grünbaum A. (1996 [1984], Foundations of Psychoanalysis: A Philosophical Critique, trad. Française Les Fondements de la psychanalyse, Paris, éd. PUF. (19

Jung Karl G. (1985), Psychologie de l'inconscient, Paris, éd. Buchet-Chastel. (20

Karady V. (1968), TI., La fonction sociale du sacré, Paris, éd. Minuit. (21

Kline P. (2000), The new psychometrics. Science, psychology and measurement, London, Ed. Routledge. (22

Martin O. (1997 [19001930-]), La mesure de l'esprit. Origines et développements de la psychométrie, Paris, éd. L′Harmattan. (23

Martin O. (2008), "Francis Galton, L'obsession de la mesure", in Revue Sciences humaines, hors-série spécial, n° 7, septembre-octobre. (24

Mauss M. (1950), Sociologie et anthropologie, Paris, éd. PUF. (25

Meyer C. (sous dir.) (2005), Livre noir de la psychanalyse, Paris, éd. Les Arènes. (26

Mill John S. (2005 [1863]), L'Asservissement des femmes, Paris, éd. Poche. (27

Mitchell J. (1999), Measurement in psychology. A critical history of methodological concept, Cambridge, Ed. Cambridge University Press. (28

Mitchell J., (in press) Is psychometrics pathological science ? Measurement: Interdisciplinary Research and Perspectives. (29

Rasch G. (1960), Probabilistic models for some intelligence and attainment tests, Copenhagen, Ed. Denmark institute of education. (30

Róheim G. (2000), Les portes du rêve, Paris, éd. Payot. (31

Sireci S.G. (1998), "The construct of content validity", in Social indicators research, n° 45, pp. 83117-. (32

Spearman C. (1927), The abilities of men, London, Ed. Macmillan. (33

Stevens S.S. (2002 [1951]), Handbook of experimental psychology, New York, Ed. John Wiley. (34

Stevens Stanley S. (1946), "On the theory of scales of measurement.", in Science N° 103, pp. 677–680. (35

Micheli-Rechtman V. (2007), La psychanalyse face à ses détracteurs, Paris, éd. Aubier. (36

obeikandl.com